117 - قوله D : { لقد تاب ا على النبي } الآية تاب ا أي : تجاوز وصفح ومعنى توبته على النبي A بإذنه للمنافقين بالتخلف عنه وقيل : افتتح الكلام به لأنه كان سبب توبتهم فذكره معهم كقوله تعالى : { فأن خمسه وللرسول } (الأنفال - 41) ونحوه { والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة } أي : في وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش يسمى جيش العسرة والعسرة : الشدة وكانت عليهم غزوة عسرة في الظهر والزاد والماء .

قال الحسن : كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهما أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة فمضوا مع رسول ا A إلى تبوك على صدقهم ويقينهم .

وقال عمر بن الخطاب : [خرجنا مع النبي A إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فقال أبو بكر الصديق : يا رسول ا إن ا قد عودك في الدعاء خيرا فادعوا ا لنا قال أتحب ذلك ؟ قل : نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا فلم نجدها جازت العسكر] { من بعد ما كاد يزيغ } قرأ حمزة وحفص : { يزيغ } بالياء لقوله : { كاد } ولم يقل : كادت وقرأ الآخرون بالتاء والزيغ : الميل أي : من بعد ما / كاد تميل { قلوب فريق منهم } أي : قلوب بعضهم ولم يرد الميل عن الدين بل أراد الميل إلى التخلف والانصراف للشدة التي عليهم .

قال الكلبي : هم ناس بالتخلف ثم لحقوه .

{ ثم تاب عليهم } فإن قيل : كيف أعاد ذكر التوبة وقد قال في أول الآية : { لقد تاب ا على النبي } ؟ .

قيل : ذكر التوبة في أول الآية قبل ذكر الذنب وهو محض الفضل من ا D فلما ذكر الذنب أعاد التوبة والمراد منه قبولها .

{ إنه بهم رؤوف رحيم } قال ابن عباس : من تاب ا عليه لم يعذبه أبدا .

قوله D : { وعلى الثلاثة الذين خلفوا } أي خلفوا عن غزوة تبوك وقيل : خلفوا أي : أرجىء أمرهم عن توبة أبي لبابة وأصحابه وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك الشاعر ومرارة بن

الربيع وهلال بن أمية كلهم من الأنصار .

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد ا النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا يحيى ين بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن عبد ا بن كعب بن مالك أن عبد ا بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي - قال : [سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن غزوة تبوك قال كعب : لم أتخلف عن رسول ا A في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت عن غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها إنما خرج رسول ا A يريد عير قريش حتى جمع ا بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول ا A ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وكان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة وا ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول ا A يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول ا A في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول ا A كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من ا وغزا رسول ا A تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فتجهز رسول ا A والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا وأقول في نفسي : أنا قادر عليه إذا أردت فلم يزل يتمادى بي الأمر حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول ا A والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول ا A فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن عذر ا من الضعفاء ولم يذكرني رسول ا A حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب ؟ فقال رجل من بني سلمة : يا رسول ا حبسه برداه ونظره في عطفيه فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت وا يا رسول ا ما علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول ا A .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا ؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل : إن رسول ا A قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب فأجمعت صدقة وأصبح رسول ا A قادما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا

فقبل منهم رسول ا علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى ا فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى يا رسول ا إني وا لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ولكني وا لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن ا أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو ا لا وا ما كان لي من عذر وا ما كنت أقوى قط ولا أيسر مني حين تخلفت عنك فقال رسول ا A : أما هذا .

فقد صدق فقم حتى يقضي ا فيك .

فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي : وا ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول ا A بما اعتذر إليه المخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول ا A فوا ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع وأكذب نفسي ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت : من هما قالوا : مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي .

قال : ونهى رسول ا A المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول ا A فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه / فوا ما رد علي السلام فقلت له : ياأبا قتادة أنشدك با هل تعلمني أحب ا ورسوله ؟ فسكت : فعدت له فنشدته فسكت فعدت فنشدته فقال : ا ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار .

قال : فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له نحوي حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان فقرأته فإذا فيه : أما بعد : فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك ا بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك فقلت لما قرأته : وهذا أيضا من البلاء فتيممت به التنور فسجرته .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول لرسول ا A يأتيني فقال : إن رسول ا A

يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك ففلت لامرأتي إلحقي بأهلك وكوني عندهم حتى يقضي ا في هذا الأمر .

قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول ا A فقالت : يا رسول ا إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربك قالت : إنه وا ما به حركة إلى شيء وا ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال كعب : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول ا A في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت : وا لا أستأذن فيها رسول ا A وما يدريني ما يقول لي رسول ا A إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليالي حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول ا A عن كلامنا فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر ا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : ياكعب بن مالك أبشر فخررت ساجدا وعرفت أنه قد جاء فرج وآذن رسول ا A بتوبة ا علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل إلي فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه ووا ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول ا A فتلقاني الناس فوجا فوجا يهنؤنني بالتوبة ويقولون : ليهنك توبة ا .

علك قال كعب : حتى دخلت المسجد فإذا رسول ا A جالس حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد ا يهرول حتى صافحني وهنأني وا ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول ا A قال رسول ا A وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ! قال قلت : أمن عندك يا رسول ا أم من عند ا ؟ قال : لا بل من عند ا وكان رسول ا A إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول ا إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى ا وإلى رسوله قال رسول ا A : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر .

فقلت : يا رسول ا إنما نجاني ا بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت فوا ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه ا في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول ا A أحسن مما أبلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول ا A إلى يومي هذا كذبا وإني لأرجو أن يحفظني ا فيما بقيت وأنزل ا على رسوله : { لقد تاب ا على النبي والمهاجرين والأنصار } إلى قوله : { وكونوا مع الصادقين }] .

وروى إسحاق بن راشد عن الزهري بهذا الإسناد عن كعب قال : [نهى رسول ا A عن كلامي وكلام صاحبي فلبثت كذلك حتى طال علي الأمر وما من شيء أهم إلي من أن أموت ولا يصلي علي رسول ا A أو يموت رسول ا A فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي علي ! وأنزل ا توبتنا على نبيه A حين بقى الثلث الأخير من الليل ورسول ا A عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة في شأني معينة في أمري فقال رسول ا A : يا أم سلمة تيب على كعب قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره ؟ قال : إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة حتى إذا صلى A صلاة الفجر آذن بتوبة ا علينا]